

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب رياضتنا النفس

﴿ وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب ﴾

الحمد لله الذي صرف الأمور بتدبيره ، وزين صورة الانسان بحسن
تكوينه وتقديره ، وفوض تحسين الأخلاق إلى اجتهاده وتشميره ، واستحثه
على تهذيبها بتخوينه وتحذيره ، وسهل على خواص عباده تهذيب الأخلاق
بتوفيقه وتيسيره ، والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه و بشيره ونذيره ،
الذي كان تلوح أنوار النبوة من بين أساريه ، ويستنشق حقيقة الحق من
مخايله وتباشيره ، وعلى آله وأصحابه الذين حسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا
بقليله ولا بكثيره ﴿ أمّا بعد ﴾ فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين ،
وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين ، وثمره مجاهدة
المتقين ، ورياضة المتعبدين ، والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة ، والمخازي
الفاضحة ، والرذائل الواضحة ، والخبائث المبعدة عن جوارب العالمين ،
المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين ، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله

الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة ، كما أن الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان ، وجوار الرحمن ، والأخلاق الخبيثة أعراض القلوب وأسقام النفوس ، إلا أنه مرض يفوت حياة الأبد ، وأين منه المرض الذي لا يفوت إلا حياة الجسد ، ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس في مرضها إلا فوت الحياة الفانية . فالعناية بضبط قوانين العلاج لأعراض القلوب في مرضها وفوت حياة باقية أولى ، وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب ، إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكت ، وترادفت العلال وتظاهرت فيحتاج العبد إلى تأنيق في معرفة عللها وأسبابها ثم إلى تشهير في علاجها واصلاحها فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ واهمالها هو المراد بقوله ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ ونحن نشير في هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها بمونه تعالى »

﴿ بيان فضيلة حسن الخلق * ومذمة سوء الخلق ﴾

قال الله تعالى لنبيه مثلياً عليه ، ومظهراً نعمته لديه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ ﴾ وعنه صلوات الله عليه ﴿ الدِّينُ حُسْنُ الْخُلُقِ ﴾ وهو أن لا تغضب . وقيل يارسول الله : ما الشؤم قال ﴿ سُوءُ الْخُلُقِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لَاتَقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَّحُّهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ ﴾

وقيل له يا رسول الله ان فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها قال ﴿ لا خَيْرَ فِيهَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ اللَّهَ اسْتَخْلَصَ هَذَا الدِّينَ لِنَفْسِهِ وَلَا يَصْلُحُ لِدِينِكُمْ إِلَّا السَّخَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ إِلَّا فَزَيْنُوا دِينَكُمْ بِهِمَا ﴾ وقيل يا رسول الله أى المؤمنين أفضلهم ايماناً قال ﴿ أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّكُمْ لَنْ تَسْعَوْا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَسَعَوْهُمْ بِبَسْطِ الْوَجْهِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ يَا أَبَا ذَرٍّ لَا عَقْلَ كَالْتَدْبِيرِ وَلَا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ ﴾ وعن الحسن من ساء خلقه عذب نفسه وقال وهب مثل السيئ الخلق كمثل الفخارة المكسورة لا ترفع ولا تعاد طينا وقال الفضيل لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحبّ الىّ من أن يصحبنى عابد سيئ الخلق *

﴿ ماقاله السلف في حسن الخلق وشرح ماهيته ﴾

اعلم أنه روى عنهم في ذلك ما هو كالثمرّة والغاية من ذلك ماقاله الحسن رحمه الله . حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندا وكف الأذى . وقال الواسطي هو أن لا يخاصم ولا يخاصم من شدّة معرفته بالله تعالى وقال أيضا هو ارضاء الخلق في السراء والضراء وقيل غير ذلك مما هو من ثمرات حسن الخلق . وأما حقيقة الخلق فهي هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا وان كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر

خلقاً سيئاً وانما قلنا إنها هيئة راسخة لان من يصدر عنه بذل المال على
 النذور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت
 رسوخ وانما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من
 تكاف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء
 والحلم وأميات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ،
 والعدل * ونفى بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع
 الأحوال الاختيارية ونفى بالعدل حالة للنفس وقوة بها يسوس الغضب
 والشهوة ويحملها على مقتضى الحكمة ويضبطها في الاسترسال والانتفاض
 على حسب مقتضاها ونفى بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في
 اقدامها واحجامها ونفى بالعفة تأديب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع فمن
 اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها وقد أشار القرآن
 الى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ
 آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ
 هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هي قوة اليقين وهي
 ثمرة العقل ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع الى ضبط قوة
 الشهوة والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع الى استعمال قوة الغضب
 على شرط العقل وحد الاعتدال فقد وصف الله تعالى الصحابة . فقال :
 ﴿ أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ ﴾ اشارة الى أن للشدة موضعاً وللرحمة
 موضعاً فليس الكمال في الشدة بكل حال ولا في الرحمة بكل حال *

﴿ بيان قبول الأخلاق للتغير بطريق الرياضة ﴾

اعلم أن بعض من غلبت عليه البطالة استنقل المجاهدة والرياضة والاشتغال
 بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك تقصوره
 ونقصه وخبث دخلته فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فان الطباع لا تتغير
 فنقول لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواظب والتأديبات
 ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حَسِّنُوا أَخْلَاقَكُمْ) وكيف ينكر هذا في
 حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة يمكن إذ ينقل البازي من الاستيحاءش
 الى الأوس والفرس من الجحاح الى السلاسة والانتقياد وكل ذلك تغيير
 للأخلاق والقول الكاشف للفظاء عن ذلك أن تقول الموجودات منقسمة
 الى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله كالسما واللكواكب بل
 أعضاء البدن داخلا وخارجا وسائر أجزاء الحيوانات وبالجملة كل ما هو
 حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكاله والى ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل
 فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه وشرطه قد يرتبط باختيار العبد
 فان النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة اذا
 انضاف التربية اليها ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية فاذا صارت النواة
 متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الاحوال دون بعض فكذلك الغضب
 والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم تقدر عليه أصلاً
 ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه وقد أمرنا بذلك
 وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا الى الله تعالى نعم الجبلات مختلفة بعضها

سريمة القبول وبعضها بطيئة القبول . وليس المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالسكينة ومحوها وهيئات فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبله فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ولو انقطع الغضب بالسكينة لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهلكه وهلك ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله الى الشهوة حتى يحمله ذلك على امساك المال وليس المطلوب اماطة ذلك بالسكينة بل المطلوب ردها الى الاعتدال الذي هو وسط بين الافراط والتفريط . والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلوعن التهور وعن الجبن جميعا وبالجملة أن يكون في نفسه قويا ومع قوته متقاداً للعقل ولذلك قال الله تعالى ﴿ أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ ﴾ وصفهم بالشدة وانما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالسكينة والانباء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك إذ قال صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ ﴾ وكان اذا تكلم بين يديه بما يكرهه يفضح حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقاً فكان عليه الصلاة والسلام لا يخرج غضبه عن الحق وقال تعالى ﴿ وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكن . وهو المراد بتغيير الخلق . فانه ربما تستولى الشهوة على الانسان بحيث لا يقوى عقله على

دفعها عن الانبساط الى الفواحش وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال فدل
أن ذلك ممكن والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها .
والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الاخلاق دون الطرفين أن
السخاء خلق محمود شرعا وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير وقد أثنى الله
تعالى عليه فقال ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ
قَوَامًا ﴾ وقال تعالى ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ
الْبَسْطِ ﴾ وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجور قال
الله تعالى ﴿ كَاوَا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ وقال في
الغضب ﴿ أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم
﴿ خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا ﴾ .

﴿ بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة ﴾

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع الى اعتدال قوة العقل وكال الحكمة
والى اعتدال قوة الغضب والشهوة وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضا .
وهذا الاعتدال يحصل على وجهين (أحدهما) بجد إلهي وكال فطري
بحيث يخلق الانسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفى سلطان
الشهوة والغضب بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع . (والوجه الثاني)
اكتساب هذه الاخلاق بالمجاهدة والريضة وأعنى به حمل النفس على
الاعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق
الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجود وهو بذل المال فلا يزال

يطالب نفسه ويواظب عليه تكالفاً مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً
 له ويتيسر عليه فيصير به جواداً وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق
 التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين
 مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً له
 وطبعاً فيتيسر عليه وجميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذا الطريق
 وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذاً . فالسخرى هو الذي يستلذّ بذل المال
 دون الذي يبذله عن كراهة . والمتواضع هو الذي يستلذّ التواضع . ولن
 ترسخ الأخلاق الدينية في النفس ما لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة
 وما لم تترك جميع الأفعال السيئة وما لم يواظب عليها مواظبة من يشترق
 إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها كما قال
 صلى الله عليه وسلم ﴿ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ ﴾ ومهما كانت العبادات
 وترك المحظورات مع كراهة واستئثار فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به
 ولذلك قال الله تعالى ﴿ وَإِنهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ ثم لا يكفي في
 نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استئثار الطاعة واستكراه المعصية في
 زمان دون زمان بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر . ولا
 ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هي قرّة العين ومصير
 العبادات لذينةً فإن العادة تقتضي في النفس عجائب أغرب من ذلك
 فانا نرى المقامر المفلس قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه
 ما يستقل معه فرح الناس بغير قمار مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرّب بيته

وتركه مفلسا ومع ذلك فهو يجبه ويلتذ به وذلك لطول آفته له وصرف نفسه إليه مدة . وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار في حر الشمس قائما على رجليه وهو لا يحس بألمها لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها وتحلقها في جوف السماء فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف . وإذا كانت النفس بالعادة تستند الباطل وتميل إليه فكيف لا تستند الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه . بل ميل النفس الى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهي الميل الى أكل الطين فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالمادة . فأما ميله الى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفة وعبادته فهو كالميل الى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع القلب فإنه أمر رباني وميله الى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه . وإنما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عز وجل ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سببان لحياتها فكل قلب مال الى حب شيء سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله الا اذا كان أحب ذلك الشيء لكونه معينا له على حب الله تعالى وعلى دينه فمعد ذلك لا يدل ذلك على المرض فاذا قد عرفت بهذا قطعا أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهي تكاف الأفعال الصادرة عنها ابتداء فتصير طبعاً - وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح أعنى النفس والبدن - فان كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح

حتى لا تتحرك الا على وفقها لاحالة وكل فعل يجري على الجوارح فانه قد يرتفع منه اثر الى القلب والأمر فيه دور *

واذا تحققت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة وتارة تكون باعتماد الأفعال الجميلة وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير اخوان الصلاح اذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً فهو غاية الفضيلة . ومن كان رذلاً بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل . وبين الرتبين من اختلفت فيه هذه الجهات . ولكل درجة في القرب والبعد يحسب ما تقتضيه صفته وحالته ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ * ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ * ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ *

* بيان تفصيل الطريق الى تهذيب الاخلاق *

قد عرفت من قبل أن الاعتدال في الاخلاق هو صحة النفس . والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها . كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحته . والميل عن الاعتدال مرض فيه . فلتتخذ البدن مثلاً فنقول مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والاخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والاخلاق الجميلة اليها مثال البدن في علاجه بمحو العلال عنه وكسب الصحة له وجلبها اليه . وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وانما تعثرى المعدة المضرّة بهوارض

الاغذية والاهوية والاحوال فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة
وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه أى بالاعتقاد والتعليم تكنسب
الردائل . وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملاً وانما يكمل ويقوى بالنشوء
والتربية بالغذاء فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وانما تكمل بالتربية
وتهذيب الاخلاق والتغذية بالعلم . وكما أن البدن ان كان صحيحاً فشأن
الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة وان كان مريضاً فشأنه جلب الصحة اليه
فكذلك النفس منك ان كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغى أن تسمى لحفظها
وجلب مزيد القوة اليها واكتساب زيادة صفاتها وان كانت عديمة الكمال
والصفاء فينبغى أن تسمى لجلب ذلك اليها . وكما أن العلة الموجبة للمرض
لا تعالج الا بضدها فان كانت من حرارة فبالبرودة وبالعكس فكذلك
الرديلة التى هى مرض القلب علاجها بضدها فيعالج مرض الجهل بالتعلم
ومرض البخل بالتسخى ومرض الكبر بالتواضع ومرض الشره بالكف
عن المشتهى تكليفاً . وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر
عن المشتهيات لعلاج الابدان المريضة فكذلك لا بد من احتمال مرارة
المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى فان مرض البدن يخلص منه
بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد
وبالجملة فالطريق الكلى فى معالجة القلوب هو سلوك مسلك المضادة لكل
ماتهواه النفس وتميل اليه وقد جمع الله ذلك كله فى كتابه العزيز فى كلمة
واحدة فقال تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ

فإن الخنة هي المأوى ﴿ والاصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم فاذا عزم على ترك شهوة فقد تسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختباراً فينبغي أن يصبر ويستمر فإنه ان عود نفسه ترك العزم أفت ذلك ففسدت (عافانا الله تعالى من فسادها) *

﴿ بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه ﴾

اعلم أن الله عز وجل اذا أراد بعبد خيراً بهّره بعيوب نفسه . فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه . فاذا عرف العيوب أمكنه العلاج ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه . فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق *

(الأول) أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويتبع اشارته في مجاهدته وهذا شأن التلميذ مع أستاذه فيعرفه أستاذه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه *

(الثاني) أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً يلاحظ أحواله وأفعاله فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه ينبهه عليه . فهكذا كان يفعل الأكارم من أئمة الدين . كان عمر رضي الله عنه يقول رحم الله امرأً أهدي الى عيوبي وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين فهل ترى عليّ شيئاً من آثار النفاق . فهو على جلاله قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمة لنفسه رضي الله عنه . فكل من كان أوفر

عقلا وأعلى منصبا كان أقلّ اعجابا وأعظم اتهاما لنفسه وفرحا بتغيبه غيره
على عيوبه وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا
ويعرفنا عيوبنا - ويكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضعف الإيمان - فإن
الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداعة فلو نهينا منبه على أن تحت ثوبنا عقربا
انقلدنا منه منةً وفرحنا به واشتغلنا بإزالة العقرب وقتلها . وإنما نكايها على
البدن ولا يدوم ألمها يوما فما دونه . ونكايه الأخلاق الرديئة على صميم
القلب أخشى أن تدوم بعد الموت أبد الآبـاد ثم أنا لا نفرح بمن ينهنا عليها
ولا نشغل بازالتها بل نشغل بمقاولة الناصح بمثل مقالته فنقول له وأنت
أيضا تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه ويشبه
أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب وأصل كل
ذلك ضعف الإيمان فنسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا
ويشغلنا بمداواتها ويوقفنا للقيام بشكر من يطعننا على مساوئنا بمنه وفضله *
(الطريق الثالث) أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من أسنة أعدائه
فإن عين السخط تبنى المساويا ولعل انتفاع الانسان بمدو مشاحن يذكر
عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ويخفي عنه
عيوبه إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد
ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فإن مساويه لا بد وان
تنتشر على ألسنتهم *

(الطريق الرابع) أن يخاطب الناس فكل ما رآه مذموما فيما بين الخلق

فليطالب نفسه به وينسبها اليه فان المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى فما يتصف به غيره فلا ينفك هو عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شئ منه فليتفقد نفسه ويطورها عن كل ما يذمه من غيره . ونهايك بهذا تأديبا . فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب . وهذا كله من حيل من فقد شيئا مرييا ناصحا في الدين والا فمن وجدته فقد وجد الطيب فليلازمه فانه يخاصه من مرضه *

﴿ بيان تمييز علامات حسن الخلق ﴾

اعلم أن كل انسان جاهل بعيوب نفسه فاذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي ربما يظن بنفسه أنه قد هدب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة فلا بد من ايضاح علامة حسن الخلق فان حسن الخلق هو الايمان وسوء الخلق هو النفاق وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه وهي بجملة ثمره حسن الخلق وسوء الخلق فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق . قال الله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنْ ابْتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أولئك هم الوارثون الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴿ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴾ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ
 الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ
 لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا
 ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ . وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا . وَعَلَى
 رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، أُولَئِكَ
 هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿ وَقَالَ
 تَعَالَى ﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
 الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ فَهِنَّ أَشْكَلَ عَلَيْهِ حَالُهُ فَلْيَعْرِضْ
 نَفْسَهُ عَلَى هَذِهِ الْآيَاتِ فَوْجُودَ جَمِيعِ هَذِهِ الصِّفَاتِ عِلَامَةَ حَسَنِ الْخَلْقِ
 وَقَدْ جَمِعَهَا عِلَامَةُ سُوءِ الْخَلْقِ وَوَجُودَ بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ يَدُلُّ عَلَى الْبَعْضِ
 دُونَ الْبَعْضِ فَلْيَسْتَمْتِعْ بِتَحْصِيلِ مَا فَتَقَدَهُ وَحَفِظْ مَا وَجَدَهُ . وَقَدْ وَصَفَ
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُؤْمِنَ بِصِفَاتٍ كَثِيرَةٍ وَأَشَارَ بِجَمِيعِهَا إِلَى
 مَحَاسِنِ الْإِخْلَاقِ . فَقَالَ ﴿ الْمُؤْمِنُ يُحِبُّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ﴾ وَقَالَ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ﴾ وَقَالَ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ ﴾ وَقَالَ
 ﴿ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ ﴾ وَذَكَرَ أَنَّ
 صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ هِيَ حَسَنِ الْخَلْقِ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَكَلُ الْمُؤْمِنِينَ
 إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا ﴾ وَقَالَ ﴿ لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُشِيرَ إِلَى أَخِيهِ بِنَظَرَةٍ
 تُؤْذِيهِ ﴾ وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَرْوَعَ مُسْلِمًا ﴾ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ

عليه وسلم ﷺ إنما يتجالس المتجالس بأمانة الله عز وجل فلا يحل لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكرهه ﷺ وأولى ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفا فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوماً يمشى ومعه أنس فأدركه اعرابي فجذبه جذبا شديداً وكان عليه برد غليظ الحاشية قال أنس رضي الله عنه حتى نظرت الى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه . فقال يا محمد هب لي من مال الله الذي عندك فالتفت اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك ثم أمر باعطائه ولما أكرت قريش ايذائه قال ﷺ اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ﷺ *

حكى أن الأحنف بن قيس قيل له ممن تعلمت الحلم فقال من قيس ابن عاصم قيل له وما بلغ من حلمه قال بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوق علي ابن له صغير فمات فدهشت الجارية فقال لها لا روع عليك أنت حرّة لوجه الله تعالى *

وروى أن علياً كرم الله وجهه دعا غلاماً فلم يجبه فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه فقام اليه فرآه مضطجعا فقال أما تسمع يا غلام قال بلى قال فما حملك على ترك إجابتي قال أمنت عقوبتك فتكاسمت فقال امض فأنت حر لوجه الله تعالى *

وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله يا امرأتى فقال يا هذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة *

فهذه نفوس قد ذلت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها ونقيت من الفس
والفسل والحقد بواطنها فأثرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهي
حسن الخلق فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغي أن يفتن
بنفسه فيظن بها حسن الخلق بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن
يبلغ درجة حسن الخلق فانها درجة رفيعة لا ينالها إلا المقربون والصدّيقون *
﴿ بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوءهم ﴾

(ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم)

اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدّها . والصبي
أمانة عند والديه . وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش
وصورة وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه فان عود
الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه
وكل معلم له ومؤدّب وان عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلاك وكان
الوزر في رقبة القيم عليه وقد قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ
وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار
الآخرة أولى . وصيافته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه
من القرناء السوء ولا يعودده التعم ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية
فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد بل ينبغي أن يراقبه من
أول أمره فلا يستعمل في محضاته وارضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل
الحلال . ومهما رأى فيه مخايل التميز فينبغي أن يحسن مراقبته . وأول ذلك

ظهور أوائل الطياء فانه إذا كان يحشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لاشراق نور العقل عليه وهذه بشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحياته وتمييزه . وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه . وأن يأكل مما يليه . وأن لا يبادر الى الطعام قبل غيره . وأن لا يتحدث في النظر اليه ولا الى من يأكل . وأن لا يسرع في الأكل . وأن يجيد المضغ وأن لا يوالى بين اللقم . ولا ياطخ يده ولا ثوبه . وأن يعود الخبز القفار في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتما . وأن يقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهايم . وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الاكل ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الاكل . وأن يحبب اليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أى طعام كان . وأن يحبب اليه من الثياب ما ليس بملون وحرير ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين وأن الرجال يستنكفون منه ويكره ذلك عليه . ومهما رأى على صبي ثوبا من حرير أو ملونا فينبغي أن يستنكره ويذمه وأن يحفظ عن الصبيان الذين عودوا التمتع والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغبه فيه . فان الصبي مهما أهل في ابتداء نشوءه خرج في الاغلب رديء الاخلاق كذا با حسودا سرورا تماما لحوحا ذافضول وضحك وكباد ومجانة وانما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب . ثم

يشتغل في المكتب فيتمتع القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار
 وأحوالهم لينغمس في نفسه حب الصالحين . ويحفظ من الأشعار التي فيها
 ذكر العشق وأهله فان ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذور الفساد . ثم هما
 ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يُكرّم عليه ويمجّزى عليه
 بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس . فان خالف ذلك في بعض الأحوال
 مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكشفه ولا يظهر له
 أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في
 إخفائه . فان أظهر ذلك عليه ربما يفيد جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة فمعد
 ذلك ان عاد ثانيا فينبغي أن يعاتب سراً ويعظم الأمر فيه ويقال له إياك
 أن تعود بعد ذلك مثل هذا وأن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين
 الناس . ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فانه يهون عليه سماع
 الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه . وليكن الأب حافظا
 هيئة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانا والأم تخوفه بالأب وتزجره عن
 القبائح . وينبغي أن يمنع عن النوم نهارا فانه يورث الكسل ولا يمنع
 منه ليلا ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يستخف
 بدنه فلا يصبر عن التمتع بل يعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم
 وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفية فانه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه
 قبيح فاذا منع تعود ترك فعل القبيح . ويعود في بعض النهار المشي والحركة
 والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل . ويعود أن لا يكشف أطرافه . ولا

يسرع المشى . ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداد أو
بشيء من مطاعمه وملابسه بل يعود التواضع والاكرام لكل من عاشره
والتلطف في الكلام معهم . ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له بل
يعلم أن الرفعة في الاعطاء لا في الأخذ وان الأخذ لؤم وخسة ودناءة وان
ذلك من دأب الكلب فانه يصبص في انتظار لقمة والطمع فيها . وبالجملة
يقبح الى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما . ويجذر منهما أكثر مما
يجذر من الحيات والعقارب فان آفة حب الذهب والفضة أضر من آفة السموم
على الصبيان بل وعلى الكبار أيضاً . وينبغي أن يعود أن لا يبصق في مجلسه
ولا يتمخط ولا يتشاءب بمحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلا على رجل
ولا يضع كفه تحت ذقنه ولا يعمد رأسه بساعده فان ذلك دليل الكسل .
ويعلم كيفية الجلوس . ويمنع كثرة الكلام . ويبين له أن ذلك يدل على
الوقاحة وانه فعل أبناء اللئام . ويمنع اليمين رأساً صادقا كان أو كاذبا حتى لا يعتاد
ذلك في الصغر . ويعود حسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه
سنا وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ويمنع من لغو
الكلام وفحشه ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء
من ذلك فان ذلك يسرى لا محالة من القرناء السوء . وأصل تأديب الصبيان
الحفظ من قرناء السوء . وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب
أن يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب المكتب فان منع الصبي من اللعب
وإرهاقه الى التعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاه وينقص عليه العيش حتى

يطلب الخيلة في الخلاص منه رأسا . وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعاملة ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبي وأن ينظر اليهم بعين الجلالة والتعظيم وأن يترك اللعب بين أيديهم . ومهما بلغ سن التمييز فينبغي أن لا يسمح في ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان . ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع ويخوف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش فاذا وقع نشوءه كذلك في الصبي فهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور .

كتاب افات اللسان

﴿ بيان خطر اللسان ﴾

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة منه إلا بالنطق بالخير فعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ولا يدخل الجنة رجل إلا يأمن جاره بوائقه) وقال معاذ بن جبل قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول فقال (يا ابن جبل وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم) وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : يا لسان قل خيرا تغنم واسكت عن شرتك من قبل أن تندم . وعنه صلى الله عليه وسلم (من كف لسانه ستر الله عورته) ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه . ومن اعتذر الى الله قبل الله عذره) وقال صلى الله عليه وسلم (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو